بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إنَّ أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، أزمة أفكار وأزمة مفكرين في آن واحد، وذلك لأسباب كثيرة منها أنّ هذه الأفكار في الغالب أفكار ماضوية وهؤلاء المفكرون هم حملة فكر ماضوي؛ لأنهم لم يقفوا عند الاستئناس بالتراث وجعله منطلقاً لتأسيس الفكر الإسلامي المعاصر – وهو ما نوافقهم عليه – بل تقوقعوا حول هذا التراث وجمّدوا عليه وحرّموا وجرّموا كل اجتهاد خارج ما يقرره غير مميزين في ذلك بين الأصول العقدية الثابتة التي قررها الوحي وبين الآليات المتجددة التي فيها مجال لحرية الفكر، وللأسف أن هذا العمل حدث بدافع التجديد الذي لم يكن في الحقيقة إلا إعادة للفكر الماضوي بمناهج ظاهرها التجديد وباطنها الإغراق في التقليد، وقد حدث في المقابل عكس هذا إذْ عمد بعض المفكرين المعاصرين بدعوى التجديد إلى تغييب التراث تغييباً مطلقاً ومحاولة بناء فكر إسلامي جديد فكانت النتيجة صياغة فكر غريب منسلخ عن أصوله ومصادره.

إنَّ الفكر الإسلامي هو الجهاز الذي يتولى تغذية الثقافة الإسلامية بالتصورات والحلول والمناهج التي يكون بمقدورها بناء حلقة متكاملة تجيب على مختلف التحديات والأسئلة، وتضع الحلول المناسبة لها ابتداء من وعي الذات وانتمائها الحضاري وقواعد وأصول ومبادئ هذه الحضارة بما فيها وعي الهوية والخصوصية الحضارية، ووعي الآخر وثقافته حتى تتولد قناعة ذاتية بالثقافة والفكر المحلي ولا تسود نزعة الإنهزام والإنبهار التي تقود إلى الذوبان والاندماج والتقليد.

ومع أن الفكر الإسلامي بذل جهداً كبيراً في مواجهة موجة التغريب والعلمنة التي سادت في القرن الحالي وتكرست بعد ظهور الدول القومية عبر سلسلة من الانتاج الفكري والثقافي ساهمت فيه رموز فكرية كبيرة ما تزال أسماؤها لامعة في سماء الفكر الإسلامي

الحديث كالفكر الاستيعابي للسيد الشهيد محمد باقر الصدر لكل الأصعدة من العقيدة إلى الفكر الحركي والتنظيمي إلى البحث التاريخي، وكذا في نقد الحضارة الغربية، وفي تفصيل النظام السياسي الاسلامي والاقتصادي، وشرح موقف الإسلام وآرائه في كل موضوعات الحياة. إلا أن كتابات هذا المفكر الكبير لم يتم هضمها للإستفادة منها في مواجهة الأفكار الوضعية، فقد استطاع بنظرته الثاقبة من تطوير أفكار ومناهج وأساليب الأطروحة الإسلامية، وصياغة خطاب ثقافي، ومنهج تغيير اجتماعي يملأ الفراغ الموجود ويسدّ ثغرات الغزو الثقافي. فلو تمعنا في كتاباته لوجدنا التشخيص الدقيق للأزمة التي يواجهها الفكر الإسلامي، وكيف أنه وضع النقاط على الحروف في إيجاد العلاج الناجع للإشكاليات التي تواجه الفكر الإسلامي المعاصر.

أما خطة بحثي فقد اشتملت على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. ففي المبحث الأول ركزتُ فيه على إشكالية المنهج الذي يدرس الفكر الإسلامي، أما المبحث الثاني فقد حددتُ فيه إشكالية المفهوم المنتزع من رحم الثقافة الإسلامية، فيما تناول المبحث الثالث إشكالية القصور في فهم النصّ، أما الخاتمة فقد ذكرتُ فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها في هذه الدراسة.

المبحث الأول: إشكالية المنهج الذي يدرس الفكر الإسلامي

أول ما يواجهنا في إشكالية المنهج الذي يدرس الفكر الإسلامي، هو غياب الطرح الفلسفي لأدواته، ربما أدرك السيد محمد باقر الصدر قبل غيره هذه الاشكالية منذ اللحظات التكوينية الأولى، وتعامل مع هذا الادراك تعامل المعطي مع الإشكالية، وربما أدرك أيضاً آثار ومعطيات الهوة التي فصلت بين المعرفة الإبداعية والواقع الذي يشكل حاضنة لهذه المعرفة باعثاً عليها ومحلاً مما ستقع عليه آثارها [١].

إنَّ الفكر الإسلامي يسعى إلى تغيير المجتمع، وإعادة بناء الأمة الإسلامية، فهل يقتضي هذا العمل من الفكر الإسلامي أن تتم مقاربته للواقع من خلال مفاهيم فلسفية؟

لقد حاول الفكر الإسلامي ابتداء من القرن التاسع عشر، وعن طريق نقد فكر عهد الانحطاط، أن يتكيف مع متطلبات المرحلة التاريخية الجديدة. فالمفكرون المسلمون قد استخدموا بعض المفاهيم في مجابهتهم للفكر الغربي الجديدة مثل (الرّد على الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني) و (رسالة التوحيد لمحمد عبده).

غير أن الفكر الإسلامي ما زال إلى يومنا هذا في بداية الطرح الفلسفي للقضايا، فالفكر الإسلامي لم يتحرر بعد تحرّرا كلياً من الطرح الجزئي للقضايا. لا شك أن رجال الإصلاح حاولوا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن يستوعبوا أسباب وعوامل تقدم الغرب، وأن يكشفوا عن الوسائل، التي تمكّن العالم الإسلامي من اللحاق بالحضارة الغربية. غير أن الفكر الإسلامي في تلك المرحلة بقي فكراً دون مستوى التحديات بسبب غياب الأدوات الفلسفية في منهجه. لقد أعطى رجال الإصلاح الثقة للشعوب الإسلامية عندما عرّفوهم بتراثهم العريق لكن لا وجود وراء هذا الموقف العاطفي تجاه تاريخ الأمة لأية رؤية اجتماعية وسياسية. فرجال الإصلاح وكثير من المفكرين المسلمين إلى يومنا هذا لم يعيدوا صياغة الفكر الإسلامي حسب متطلبات العصر [٢].

لقد أعاد محمد باقر الصدر صياغة الفكر الإسلامي صياغة فلسفية جديدة في أفق نقدي أقوى من فلسفة كل من الغزالي وابن رشد، لا شك أن الصدر قد صاغ المفاهيم حسب متطلبات الشروط الجديدة للعقلانية. فالصدر كان واعياً بعمق بأنه لا يمكن اليوم استخدام مفاهيم مثل العقل والنقل والاجتهاد والانحطاط والتقدم والأمة والقومية خارج الإطار الفلسفي، فلا يمكن صياغة حلول للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأمة بدون اجتهاد مفلسف. ولا يمكن اتخاذ موقف نقدي من تيارات الفكر الغربي بدون فلسفة [٣].

إنَّ الجديد في فلسفة الصدر يكمن في توسيعه للنقاش في الميدان الميتافيزيقي، فهو قد طرح قضايا جديدة، وفتح آفاقاً جديدة للفكر الإسلامي مثل (نسبية العقل، العقل

والغيب، الاستقراء والميتافيزيقيا، العلاقة بين المجتمع والغيب... الخ)، ونتيجة لذلك فإن الصدر قد طرح مشكلة العلاقة بين العقل والدين على العموم، والرؤية الإسلامية إلى الغيب على وجه الخصوص، خارج إطار كل من علم الكلام والفلسفة الإسلامية، فالصدر قد طرح هذه المشكلة في أفق نظرة تركيبية لكل من علم الكلام والفلسفة والتصوف [٤].

نلاحظ أن الصدر أعطى لمشكلة العلاقة بين العقل والدين صورة جديدة، فهو لم يحلل هذه العلاقة خارج أبعادها الاجتماعية والسياسية والفلسفية، فالصدر تجاوز الفقه في صورته القديمة عندما بحث عن المفاهيم المتضمنة في الأحكام الشرعية من أجل صياغة المذهب الاجتماعي الإسلامي، وهذا الموقف يُعتبر قطيعة ابستمولوجية [٥]، مع كل من الفلسفة الإسلامية ومع الفقه كما طُرح قديماً.

إنَّ الرجوع النقدي إلى التراث وتفسير القرآن الكريم في أفق اجتماعي وتاريخي، كما يتجلى في كتابات الصدر، فتح مجالاً فلسفياً جديداً وواسعاً أمام الفكر الإسلامي المعاصر، ويتجلى ذلك فيما يلي:

١- محاولة الصدر إعادة صياغة الفكر الإسلامي ورفعه إلى مستوى التحديات، أي مستوى مجابهة الفكر الغربي بكل تياراته، وطرح البديل الإسلامي في المجال المعرفي والمنهجي والاجتماعي والحضاري، وقد صرّح في ذلك في كتابه "فلسفتنا" بقوله: ((وكان لا بد للإسلام أن يقول كلمته، في معترك هذا الصراع المرير، وكان لا بد أن تكون الكلمة قوية عميقة، صريحة واضحة، كاملة شاملة: للكون والحياة والإنسان والمجتمع والدولة والنظام، ليتاح للأمة أن تعلن كلمة "الله" في المعترك وتنادي بها، وتدعو العالم إليها، كما فعلت في فجر تاريخها العظيم))[٦].

٢- إعادة صياغة الفكر الإسلامي صياغة جديدة كما حاولها الغزالي، وقد وصلت إلى صورتها القصوى على يد الصدر.

٣- تأثُّر الصدر في تنظيره للرؤية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الإسلامية بالفقه لا بالفلسفة، فالمفاهيم التي تمّ من خلالها التنظير في المجالات السابقة هي مفاهيم متضمنة في الأحكام الشرعية، لذلك يمكن القول: بأنَّ الصدر تجاوز القطيعة بين الفقه والفلسفة، كما تجلت في الفكر الإسلامي قديماً، وأحدث العملية التركيبية بين الفقه والفلسفة [٧].

إنَّ أزمة الفكر التي نعيشها أزمة حقيقية موجودة في جانب المصادر والمناهج، جانب القضايا الأساسية التاريخية التي أحدثت أسوأ الآثار السلبية في عقليتنا وفي نفسيتنا وفي طريقة تفكيرنا، والتي أحبطت محاولات إصلاح كثيرة جداً [٨].

لقد اعترت الأمة الإسلامية أشكالاً من الخلل المنهجي والفكري، عطّلت قدرتها على الفعل والانجاز والأداء، كما شكلّت عائقاً أمام الإقلاع الحضاري المنشود. وأول هذه التشوّهات وأخطرها تشوّه الرؤية الكونية الإسلامية، التي تشكّل إطار فكر الأمة وثقافتها، بحيث لم تعدّ رؤية كونية شمولية إيجابية قادرة على أن تقدّم الدليل والهداية الكلية لفكر المسلم وضميره وعلاقاته ونظمه [٩].

وضع السيد محمد باقر الصدر رؤية كونية إسلامية رائعة بالاستناد إلى نظرية خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، باستنطاقه للآية الكريمة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً .....﴾[١٠].

فمثّلت رؤيته هذه، قوة ضميرية عقدية تربوية فاعلة محركة للفرد والمجتمع، ومفعلة لمنهجية فكر المجتمع وكل ما لدى الفرد والمجتمع من أدوات الفعل والحركة وضوابطها المتمثلة في مبادئ منهجية فكره، وما تنطوي عليه المنهجية من مفاهيم وقيم وضوابط [١١].

إذا كان الوعي المنهجي هو الحالة التي تعبِّر عن ادراك الواقع القائم ومنهج تغييره إلى الواقع المنشود، فإنّه يجب أن يتّسم بالكلية، وأن يستند إلى التدبير الهادف الذي تحكمه رؤية كلية للعالم.

وأول مقومات هذا الوعي، ما يتعلق بمنهج التعامل مع القرآن، من خلال التعامل مع الخطاب القرآني من منطلق شمولي، واعتماد المرجعية القرآنية ضمن مفهوم الوحدة البنائية للقرآن الكريم والسنّة النبوية بوصفها بياناً للقرآن وتطبيقاً لتوجيهاته.

من هنا بدأ السيد الصدر مشروعه في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لتحقيق هذه الرؤية، حيث كتب في السنن التاريخية وفي عناصر المجتمع الإلهي وفي خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء وغيرها، مستنداً إلى أن القرآن الكريم منبعاً للطاقة الفكرية للمسلم، ومن ثمَّ منبعاً لجميع المعارف والعلوم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾(١٢)، فالمعرفة القرآنية متكاملة وشاملة، وهو بالضرورة يتضمن منهجيات مختلفة تتناسب والقضايا المطروحة، كفيلة بإخراج الأمة من الانحطاط إلى تبوُّء مركز الريادة باعتبارها خير أمة أُخرجت للناس: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ (١٣).

ونتيجة لما تقدم يمكن القول بأن السيد الصدر أعاد صياغة الفلسفة الإسلامية القديمة والفكر الإسلامي على العموم، بمنهجية فريدة من نوعها، وأعاد كذلك صياغة فلسفة كل من الغزالي وابن رشد، فصاغ عن طريق هذا النقد– أي نقد الفلسفة الإسلامية ونقد الفلسفة الغربية – فلسفة إسلامية معاصرة ثرية من حيث المفاهيم والمنهج، فهي فلسفة لها موقعها ضمن الاتجاهات الفكرية المكونة للثقافة المعاصرة، بل وأكثر من ذلك فقد قدّم السيد الصدر للثقافة الإنسانية عامة، فلسفة جديدة تسعى إلى ربط الإنسان بالله ﷻ وبالقيم عن طريق ربطه بالنبوة والإمامة (١٤).

المبحث الثاني إشكالية المفهوم المنتزع من رحم الثقافة الإسلامية

كما بيَّنا في المبحث الأول الاختلالات المنهجية التي أدت إلى بروز أزمة في الفكر الإسلامي، يمكننا الحديث عن اختلالات مفاهيمية (بناء المفاهيم)، تتجلى بالأساس في الفهم الخاطئ لمجموعة من المفاهيم، وبالتالي توظيفها توظيفاً غير مناسب، والنتيجة الحتمية ظهور اختلالات في النتائج، ومن الأمثلة على ذلك: "تعريف السنّة" بعيداً عن كونها بياناً للقرآن الكريم، ومفهوم "الفقه" بكونه يقتصر على استنباط الأحكام الشرعية، رغم كون هذا الأخير جزءاً من الفقه، وليس الفقه كله، ومفهوم "العقل" بكونه مصدراً للمعرفة وليس أداة لبلوغها.

نلاحظ ابتداء من السيد جمال الدين الأفغاني، بروز قابلية على استحضار الفكر الاسلامي للمفاهيم القرآنية المرتبطة بالمجتمع والتاريخ، وقدرة على ربط حالة الأمة الاجتماعية والسياسية والثقافية بلغة القرآن الكريم.

ثم تطور الفكر الإسلامي إلى مستوى آخر، حيث بدأ يتعامل بشكل مباشر ومن منظور قرآني– مع المذاهب الاجتماعية والسياسية، وبدأ يرصد الآيات ويستخلص دلالاتها من أجل اكتشاف إطار المذهب الاجتماعي السياسي الإسلامي(١٥).

وتعبِّر كتابات السيد محمد باقر الصدر في هذا السياق، عن مرحلة جديدة في تطور الفكر الإسلامي، وانتقاله من المبادئ والأفكار العامة إلى مستوى التنظير وتحديد المفاهيم، ونقد النظريات والمذاهب الاجتماعية والسياسية الغربية.

وهنا يبرز فكر السيد الصدر كفكر إسلامي بالمعنى الشرعي للكلمة، فهو فكر يختلف عن التيارات التي حاولت أن تصوغ فكراً اسلامياً بالاعتماد على مناهج فكرية غير اسلامية، فهذه التيارات تبرر الواقع باسم التوفيق بين الاسلام والمعاصرة، أما فكر السيد الصدر فهو فكر يرفض كل تأويل أو تفسير يختلف مع مقاصد الإسلام ومضامينه (١٦).

لقد حرص السيد الصدر على أن لا يسقط في فخ النزعة التي سقط فيها الفلاسفة المسلمون قديماً والمحدثون في العالم الإسلامي في عصرنا، انطلاقاً من هذا التحفظ المبني على التقوى ذات الأبعاد التعبدية والمنهجية. حاول السيد الصدر استنباط المفاهيم القرآنية المؤطرة والموجهة لتنظير الفكر الاجتماعي –السياسي الإسلامي. فتصنيف الامام الصدر لهذه المفاهيم هو تصنيف يؤكد على وحدتها وترابطها وتكاملها، فهو يتجنب النظرة التجزيئية كما يتجنب الإسراف في التأويل والتسرّع في الاستنتاج. فالفكر الاجتماعي السياسي هو جزء من كل، فالسيد الصدر يرى أنه من الخطأ العلمي والمنهجي فصله عن النسق العام الذي يتمحور حول العقيدة الإسلامية، فالسيد الصدر انطلق في تنظيره للمذهب الاقتصادي الإسلامي، ولسائر القضايا الاجتماعية والسياسية والفلسفية التي عالجها من استيعاب هذه القضايا في كليتها، أي في ترابطها مع كل جوانب النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان، فالسيد الصدر يرى أن فهمنا وتنظيرنا للحياة الاجتماعية يتوقف على النظرة الكلية إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة لا على النظرة الانتقائية [١٧].

يخضع انتاج المصطلح المفهومي المعاصر لضغوط فكرية ثلاثة: الأول: يكمن في استثمار الفكر الغربي للقطيعة المعرفية بين التراث الفكري والواقع المعاصر وتصدير المصطلح الغربي للمفاهيم بحيث يستعمل هذا المصطلح بلا وعي للحاضنة البيئية التي أنتجته، مما يشوه الوعي المعاصر للمشكلة الاقتصادية وحلولها مثلاً؛ والثاني: حاجة الفكر المعاصر لإستحداث المصطلح حاجة ضرورة لا يمكن الإعراض عنها؛ والضاغط الثالث: محاولة أسلمة المصطلح المتداول[١٨].

ويمكننا هنا أن نلتمس أن الشريحة المتنازلة عن التراث استسلمت للمصطلح الغربي رغم ما فيه من جذور ثقافية بيئية مختلفة عن صيرورة المفاهيم في بيئتنا، وأن الشريحة الملتزمة تماماً بالتراث ظلّت دون استخدام المصطلح رغم أنه ترميز فكري مدمج يحتاجه الخطاب المعاصر، وأن الشريحة الثالثة حاولت أن تؤسلم المصطلح الغربي [١٩].

أما السيد الصدر وهو من المدرسة الرابعة فقد تولّى ودعا إلى اكتشاف المصطلح ونحته من خلال صيرورة تراثية منفتحة على فكر الآخر مثل مبدأ الملكية المزدوجة، ومبدأ الحرية الاقتصادية المحدودة، والتوزيع الأساس (توزيع مصادر الانتاج) وهو مختلف تماماً عن توزيع الدخل في الفكر الاقتصادي الوضعي ومفهوم الحاجة الاقتصادية [٢٠].

هذا هو الفرق الأساسي بين الفكر الإسلامي والفكر المحدث، ذلك أن هذا الأخير قد طرح إشكالية التغيير والتجديد كمصطلحات يتم تحليلها وفق المنهج الوضعي، الذي لجأ إليه المحدثون كمنهج بديل عن الفكر الإسلامي بكل مكوناته. في حين أن السيد الصدر يطرح القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من موقع الاستجابة الإسلامية لمستجدات العصر وتحديات الحضارة الغربية. فهو لم يُخضع الشريعة للواقع أي للإنتاج القيمي والمفهومي للتفاعلات الاجتماعية المنفصلة عن شريعة الله؛ لأن الواقع بابتعاده عن هدى الله هو واقع فاسد بالنسبة للسيد الصدر، وكل لجوء إليه كقوة إليه كقوة مرجعية أي كمصدر وحيد للتنظير هو خروج عن متطلبات الشرع وإخضاع حكم الله لحكم الواقع، أي إخضاع المطلق للنسبي [٢١].

إنَّ أي فكر لم يصل إلى مستوى صياغة المفاهيم من منظور أصول الفقه، هو فكر عاجز عن إنتاج فكر اجتماعي- سياسي يحرر الأمة ويحدث نهضة في شعوبها. فهذا الفكر عقيم ونظرته نظرة تجزيئية تتناقض مع صياغة المفاهيم وتنسيقها. فصياغة المفاهيم هي الشرط الضروري لصياغة المشروع الحضاري الإسلامي.

والحق أن التحليل الذي تناول الفكر الإسلامي في تفاعل عناصره الفقهية والكلامية والفلسفية قد بدأ مع السيد جمال الدين الأفغاني، إلا أنه أخذ طابعه الأعمق عند السيد الصدر، الذي صاغ الفكر الاجتماعي السياسي الإسلامي بصيغة تربط الجانب الغيبي العبادي بالجانب الفلسفي والعلمي من خلال تأكيده على ما يتضمنه الإسلام من مفاهيم عن الكون والحياة وحركة التاريخ ونهضة الحضارات وسقوطها.

إنَّ منهج التعامل مع النص أثناء محاولة تنظير الفكر الاجتماعي- السياسي يشكلّ مصدراً لابتغاء الرشد. ويعتبر منهج التعامل مع النص، العامل الأساسي والمصيري، فالتعامل هنا معناه بناء المفاهيم وبناء المنهج البديل الذي يتأسس عليه صرح المعرفة في العلوم الاجتماعية. والمشكل المطروح هنا هو كيف يمكن للفكر الإسلامي المعاصر أن يدرك المكنونات القرآنية في مضمار الفكر الاجتماعي- السياسي؟

إنَّ القرآن الكريم بالنسبة للسيد الصدر لا يقف عند حدّ الدعوة إلى مجتمع تسوده العدالة والقيم الأخلاقية، ولكنه قدم الإطار الذي يتم فيه تحوُّل المجتمع.

فالقرآن الكريم منذ بداية النزول في المرحلة المكية تفاعل مع الواقع ومع الحياة في كل جوانبها وعمل على تغيير الواقع في ضوء متطلبات القيم والمفاهيم الربانية، وعليه يرى السيد الصدر أن التعامل مع القرآن الكريم من خلال دمج القضايا المطروحة على الأمة في اطارها الاجتماعي والحضاري سيفتح آفاقاً جديدة لعملية تنظير فكر اجتماعي – سياسي إسلامي. وهذا النموذج في التعامل مع مفاهيم القرآن الكريم من منطلق شمولي نجده في التفسير الموضوعي للسيد الصدر [٢٢].

المبحث الثالث إشكالية القصور في فهم النّص

كما يتمثل الخلل في هذا المجال في البحث عن الحقيقة في حيّز ضيّق ومحدود من مجالات المعرفة بالاقتصار على التراث دون المستجدات، والاقتصار في هذا التراث على الجانب الفقهي منه، دون استيعاب مصادر التأسيس من الكتاب والسنّة، أو على الجانب النصّي دون استيعاب مجالات التطبيق في مسائل الكون والعمران، والنتيجة الحتمية هي توقف الاجتهاد والاكتفاء باستهلاك نفس المنتوج دون محاولة انتاج منتوج جديد يلائم متطلبات العصر، اعتقاداً بأن القواعد المستخدمة في البحث في القرآن الكريم والسنة تعتبر كمسلّمات، رغم كونها مجرد قواعد أبدعها الفكر الإسلامي.

إنَّ عدم تجديد أدوات عمل أصول الفقه على سبيل المثال، وتضخم فقه العبادات، وضمور فقه الواقع نتج عنه اجترار الفتاوى الفقهية، واشتداد العصبية المذهبية [٢٣].

من الجدير بالذكر أنه لا يوجد في الأصول النصّية للإسلام: ((القرآن والسنّة بمعناها الشامل لأقوال الأئمة :، نقص في النص لقوله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم...﴾ [٢٤]، لكنهم على أصل الإباحة هناك مناطق ومفردات ومساحات سكت عنها النصّ، وهناك قصور بسبب تدرج المعرفة ومراتب العلم عن فهم كل المراد من النّص، وإذا كانت المدارس الفقهية كلها تجتمع على أن النصوص متناهية والواقع لا متناهية، فلا بد من جعل النص في موازاة تجدد الوقائع والأحداث فتوسيع المناط بعد تحقيقه، أو تنقيح المناط وحده غير كاف لمثل هذه الإشكالية، وحيث إنَّ القياس في جنبه من الظن غير الكافي لتأسيس الحكم على مستنبط العلة منه، وأن الاستحسان مختلف حجيته، فإن علاج السيد الصدر كان توسيع صلاحية المجتهد بالاستناد إلى كليات الشريعة ومقاصدها وتحكيم المصلحة الضرورية القطعية الكلية في ملء منطقة الفراغ التشريعي سواء في ما سكت عنه النصّ أو ما قصّر عنه فهم النص ((استناداً إلى أن الإسلام لا يقدّم أحكامه بوصفها علاجاً مؤقتاً أو تنظيماً مرحلياً يجتازه التاريخ، إنما يقدمها بوصفها النظرية

الصالحة لجميع العصور))[٢٥]. فكيف يُكتشف العنصر المتحرك ويحتوي الجانب المتطور من حياة الإنسان؟ ومنه ما يطلق عليه تحجير المباح[٢٦]، فمبدأ الإحياء مثلاً في العصور القديمة محدد موضوعياً بالقدرة التقنية إلى خلل في توازن الثروة، وبذلك يزعزع العدالة الاجتماعية ويتعارض مع تصور الاسلام للعدل، وهنا تبرز منطقة الفراغ التي تركها المشرّع للمجتهدين في معالجة مثل هذه الحالات بحيث يمكن ملؤها بحسب الظروف [٢٧].

لا يمكن – بل لا يتصور – إنَّ القول بمنطقة الفراغ يستلزم نقصاً في التشريع أو إهمال الشريعة لبعض الوقائع والأحداث، فالشرع هو الذي أوجد منطقة الفراغ وهو الذي أجاز للمجتهدين ملؤها بحسب نوع التطور وحسب الظروف[٢٨]، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [٢٩].

ومنطقة الفراغ ليست مطلقة، إنما محدودة، فكل فعل مباح تشريعياً يجوز فيه لولي الأمر إعطاءه صفةٍ ثانوية بالمنع منه، أو الأمر به، فإذا منعه أصبح حراماً وإذا أمر به أصبح واجباً [٣٠].

وهذا المؤشر – حسب رؤية السيد الصدر– يعني أن النبي (صلى الله عليه وال وسلم) والأئمة : لهم شخصيتان: الأولى بوصفهم مبلّغين للعناصر الثابتة عن الله تعالى، والأخرى بوصفهم حكاماً وقادة للمجتمع الإسلامي والروح الاجتماعية والإنسانية للشريعة المقدسة، وعلى هذا الأساس كان النبي (صلى الله عليه واله وسلم) والأئمة : يمارسون وضع العناصر المتحركة في مختلف شؤون الحياة الاقتصادية وغيرها، وهذه العناصر– بحكم صدورها عن صاحب الرسالة أو ورثته المعصومين– تحمل بدون شك الروح العامة للاقتصاد الإسلامي، وتعبّر عن تطلعاته في واقع الحياة. ومن هنا كانت ممارسة القائد المعصوم في هذا المجال ذات دلالة ثابتة، وعلى الحاكم الشرعي أن يستفيد منها مؤشراً

إسلامياً- بقدر ما لا يكون مشدوداً إلى طبيعة المرحلة التي رافقتها- ويحدد على أساس هذا المؤشر العناصر المتحركة [٣١].

إنَّ منطقة الفراغ إطار معرفي لحلّ مشكلة التنظير في فلسفة التاريخ، حيث إنَّ أكبر مشكلة تطرح على الفلسفة الوضعية هي مشكلة العلاقة بين الثابت والمتغير، في حين أن هذه المشكلة تجد حلّها في نظرية المعرفة التي صاغها السيد الصدر، فنظرية المعرفة ليست عند السيد الصدر نسقاً مغلقاً تتجاوزه حركة التاريخ. إنَّ الإسلام كما يرى السيد الصدر قد وضع لحركة التاريخ إطاراً نظرياً يستوعبها (منطقة الفراغ)[٣٢].

فمنطقة الفراغ كما يطرحها السيد الصدر هي منهج لاستكشاف أدوات فكرية تضبط الاستمرارية في علاقتها بالتغيير، لذلك فالصدر قد حرّر الفكر الإسلامي من الثنائية بمفهومها السكوني، التي تطرح من موقع تناقض علاقة الجديد بالقديم، والمادي بالروحي، والثابت بالمتغير، والأصالة بالمعاصرة. فمنطقة الفراغ منهج كسر هذه الثنائية وربط الثابت بالمتحرك ضمن علاقة تكاملية [٣٣].

لذلك تتمتع منطقة الفراغ بإمكانيات لا نهاية لها لإستيعاب حركة التاريخ والتأثير فيها حسب متطلبات الشريعة ومتطلبات الواقع معاً. فالفكر الإسلامي يمتلك – بفضل منطقة الفراغ – الأدوات المنهجية التي لا تسمح له باستيعاب المستجدات فحسب، بل تسمح له كذلك بالمساهمة في طرح الحلول واتخاذ مواقف تجاه التغيرات الجذرية، التي نشاهدها هذه الأيام في المذاهب الاجتماعية والسياسية، وما ينتج عن ذلك من إشكاليات فلسفية [٣٤].

فمنطقة الفراغ لا تخضع في جوهرها لضغط الحداثة أو التحديث على اعتبار أنها إطار منفتح على حركة التأريخ، وله قدرة استيعابية لا حدود لها بحكم العلاقة التكاملية بين الثابت والمتغير المتضمنة في هذا الاطار العام، لذلك فإن منطقة الفراغ تعيد اكتشاف القرآن الكريم عبر التاريخ وفق شروط المرحلة التاريخية.

الخاتمة

أما أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في دراسته لأزمة الفكر الإسلامي المعاصر من منظور السيد محمد باقر الصدر فهي كالآتي:

١- إذا أرادت الأمة الإسلامية تجاوز الأزمة الفكرية، واستعادة عزتها ورقيها وتصدّر قافلة الحضارة الإنسانية، فعليها تملّك وعي منهجي واضح الخطوات في بنائه، بين بناء للمفاهيم، وبناء للأطر المرجعية، للتحقق من تلك المفاهيم، ولتحقيق غاية المنهجية، كما عليها قبل ذلك الإقتناع بضرورة تملُّك هذا الوعي والعمل على نشره، سواء من جهة بناء التفكير المنهجي أو البحث المنهجي أو السلوك المنهجي، وذلك لتجاوز مختلف الاختلالات التي يعاني منها الفكر الإسلامي من جهة امتلاك الرؤية الكلية للعالم أو في فهم الواقع وأساليب التعامل معه أو في تفسير الظواهر وادراك علاقة الأسباب بالنتائج. فكان السيد الصدر رائداً في صياغة المنهج المطلوب للفكر الإسلامي.

٢- إذا كان الوعي المنهجي هو الحالة التي تعبِّر عن ادراك الواقع القائم ومنهج تغييره إلى الواقع المنشود، فإنه يجب أن يتسم بالكلية، وأن يستند إلى التدبير الهادف الذي تحكمه رؤية كلية للعالم، كما نجد ذلك في كل كتابات السيد محمد باقر الصدر.

٣- إنَّ الإيمان بنظرية ترابط العلوم الإسلامية، ودراسة كل علم منها على أنه جزء من منظومة متكاملة، يجعلنا لا نواجه أزمة مفاهيم، فالأزمة تتولد من دراسة الفكر الإسلامي دراسة تجزيئية،، كما هو الحال الذي نحن فيه.

٤- إنَّ انفتاح التجربة الإسلامية المعاصرة على آفاق التطبيق، جعلها تواجه فراغات وحرجاً واقعياً لعدم جاهزية الفكر الإسلامي للإجابة على أسئلة قلقة، وتحديات ميدانية وتفصيلية متنوعة ومتعددة، والحل يكمن بالرجوع إلى نظرية "منطقة الفراغ" التي بنى صرحها السيد محمد باقر الصدر.

الهوامش:

(١) قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر، د. عبد الأمير كاظم زاهد: ٣٣١
(٢) فلسفة الصدر، د. محمد عبد اللاوي: ٩
(٣) المصدر نفسه: ١١
(٤) ويُعتبر هذا دحضاً لموقف محمد عابد الجابري الذي يقسِّم الفكر الإسلامي إلى بيان وبرهان وعرفان، ففلسفة الصدر تتضمن كل هذه الجوانب بصورة منسقة.
(٥) القطيعة الابستمولوجية تعني: الطرح الجديد للموضوع، فهي لا تعني اختلاف المواضع، بل تعني الاختلاف في المنهج وفي الطرح.
(٦) فلسفتنا، محمد باقر الصدر: ٦
(٧) العملية التركيبية بين الفقه والفلسفة بدأت في الفكر الإسلامي المعاصر على يد السيد جمال الدين الأفغاني وانتهت صورتها المنسقة عند محمد باقر الصدر.
(٨) الأزمة الفكرية المعاصرة، طه جابر العلواني: ٤١
(٩) أزمة الإرادة والوجدان المسلم، عبد الحميد أبو سليمان: ٢٠
(١٠) البقرة: ٣٠
(١١) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبد الحميد أبو سليمان: ٢٠
(١٢) الأنعام: ٣٨
(١٣) الكهف: ١٠٩
(١٤) فلسفة الصدر، د. محمد عبد اللاوي: ٢٧
(١٥) المصدر نفسه: ٣١
(١٦) المصدر نفسه: ٣٢
(١٧) المصدر نفسه: ٣٣
(١٨) قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر، د. عبد الأمير كاظم زاهد: ٣٤١
(١٩) المصدر نفسه: ٣٤٢
(٢٠) اقتصادنا، محمد باقر الصدر: ٢٩٣، ٣٤٨
(٢١) فلسفة الصدر، د. محمد عبد اللاوي: ٣٣
(٢٢) المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر: ٧٤
(٢٣) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبد الحميد أبو سليمان: ٤٩
(٢٤) المائدة: ٣
(٢٥) اقتصادنا، محمد باقر الصدر: ٢٩٣
(٢٦) قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر، د. عبد الأمير كاظم زاهد: ٣٤٠
(٢٧) اقتصادنا، محمد باقر الصدر: ٢٩٧
(٢٨) المصدر نفسه: ٢٩٨
(٢٩) النساء: ٥٩
(٣٠) دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، د. عبد الأمير كاظم زاهد: ٣٤١
(٣١) الإسلام يقود الحياة، محمد باقر الصدر: ٥٠
(٣٢) فلسفة الصدر، د. محمد عبد اللاوي: ٣٧٤
(٣٣) اقتصادنا، محمد باقر الصدر: ٢٩٣
(٣٤) فلسفة الصدر، د. محمد عبد اللاوي: ٣٧٩.

المصادر:

- القرآن الكريم

١- أزمة الإرادة والوجدان المسلم، عبد الحميد أبو سليمان، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٥م.
٢- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمد عمارة، دار الشرق الأوسط للنشر.
٣- الأزمة الفكرية المعاصرة، طه جابر العلواني، ط٤، ١٩٩٤م.
٤- الإسلام يقود الحياة، محمد باقر الصدر، مؤسسة الهدى الدولية للنَّشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١ق.
٥- اقتصادنا، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، ط٣، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.
٦- الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبد الحميد أبو سليمان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
٧- فلسفة الصدر، د. محمد عبد اللاوي، مؤسسة العارف للمطبوعات، ط٢، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.
٨- فلسفتنا، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، ط٤، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م.
٩- قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر، د. عبد الأمير كاظم زاهد، دار الضياء للطباعة والتصميم، ط١، العراق- النجف الأشرف، ٢٠٠٨م.
١٠- قضية المنهجة في الفكر الإسلامي، عبد الحميد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.
١١- المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، مكتبة سلمان المحمدي، ط١، العراق- بغداد، ٢٠١٣م.

( ) Readings in Contemporary Islamic Thought, d. Abdul Amir Kazem Zahid: 331
( ) Al-Sadr's philosophy, d. Mohamed Abdellawi: 9
( ) Same source: 11
( ) This is considered to be a refutation of the position of Muhammad Abed Al-Jabri, who divides Islamic thought into a statement, proof, and recognition. Al-Sadr's philosophy includes all these aspects in a coordinated manner.
( ) Epistemological rupture means: the new proposition of the subject, it does not mean the difference in positions, but rather the difference in the method and in the proposition.
( ) Our Philosophy, Muhammad Baqir Al-Sadr: 6
( ) The synthetic process between jurisprudence and philosophy began in contemporary Islamic thought at the hands of Sayyid Jamal al-Din al-Afghani, and its coordinated image ended with Muhammad Baqir al-Sadr.
( ) The Contemporary Intellectual Crisis, Taha Jaber Al-Alwani: 41
( ) The Crisis of the Muslim Will and Conscience, Abdel Hamid Abu Suleiman: 20
( ) Cow: 30
( ) The Quranic Civilizational Cosmic Vision, Abdul Hamid Abu Suleiman: 20:
( ) cattle: 38
( ) Cave: 109
( ) Al-Sadr's philosophy, d. Muhammed Abdul-Lawi: 27
( ) Same source: 31
( ) Same source: 32
( ) Same source: 33
( ) Readings in Contemporary Islamic Thought, d. Abdul Amir Kazem Zahid: 341
( ) Same source: 342
( ) Our Economy, Muhammad Baqir Al-Sadr: 293, 348
( ) Al-Sadr's philosophy, d. Muhammed Abdul-Lawi: 33
( ) The Qur'anic School, Muhammad Baqir al-Sadr: 74
( ) The Quranic Civilized Cosmic Vision, Abdul Hamid Abu Suleiman: 49
( ) Table: 3
( ) Our Economy, Muhammad Baqir Al-Sadr: 293
( ) Readings in Contemporary Islamic Thought, d. Abdul Amir Kazem Zahid: 340
( ) Our Economy, Muhammad Baqir Al-Sadr: 297

( ) Same source: 298
( ) Women: 59
( ) Studies in Contemporary Islamic Thought, d. Abdul Amir Kazem Zahid: 341
( ) Islam leads life, Muhammad Baqir al-Sadr: 50
( ) Al-Sadr's philosophy, d. Muhammad Abdul-Lawi: 374
( ) Our Economy, Muhammad Baqir Al-Sadr: 293
( ) Al-Sadr's philosophy, d. Muhammad Abd al-Lawi: 379.

Sources:

- The Holy Quran
1- The Crisis of the Muslim Will and Conscience, Abdel Hamid Abu Suleiman, Dar Al Fikr, Damascus, 2005.
2- The crisis of contemporary Islamic thought, d. Muhammad Emara, Middle East Publishing House.
3- The Contemporary Intellectual Crisis, Taha Jaber Al-Alwani, 4th edition, 1994 AD.
4- Islam leads life, Muhammad Baqir Al-Sadr, Al-Huda International Foundation for Publishing and Distribution, 1, 1421 BC.
5- Our Economy, Muhammad Baqir al-Sadr, Dar al-Ta'rif for Publications, 3rd Edition, Beirut, Lebanon, 1987 AD.
6- The Quranic Civilizational Cosmic Vision, Abdel Hamid Abu Suleiman, Center for Arab Unity Studies, Beirut, 1, 2002 AD.
7- Al-Sadr's philosophy, d. Muhammad Abdul-Lawi, Al-Arif Publications Foundation, 2nd floor, Beirut, Lebanon, 2001 AD.
8- Our Philosophy, Muhammad Baqir al-Sadr, Dar al-Ta'arif for Publications, 4th edition, Beirut, Lebanon, 1989.
9- Readings in Contemporary Islamic Thought, d. Abdul Amir Kazem Zahid, Dar Al-Diaa for Printing and Design, 1st Edition, Iraq - Al-Najaf Al-Ashraf, 2008.
10- The Case of Methodology in Islamic Thought, Abdel Hamid Abu Suleiman, International Institute of Islamic Thought, 1st Edition, Beirut, Lebanon, 1995 AD.
11-The Qur'anic School, Muhammad Baqir Al-Sadr, Salman Al-Mohammadi Library, 1st Edition, Iraq - Baghdad, 2013 AD.